

نفحات القرآن

[344] (لَتَسْتَخَوُّوا عَلَى طُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَىٰ رِجْلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ). صحيحٌ اننا ننظرُ إلى هذه المسألة نظرةً بسيطةً جرّاء اعتيادنا عليها يومياً، حيث نرى قوافل كبيرة من الابل والخيول، وحتى حيوانات ضخمة كالفيلة مُسَخَّرَةً بيد طفل صغير، واحياناً يُودَعُ عنانٌ قافلة منها بيد طفل فيقودها حيث يشاء، إلا أنّها في الحقيقة ليست أمراً هيئناً، فلو كانت لدى احدها اقلُّ حالة من التمرد والمواجهة فلا يستفاد منها في الركوب ابداً بل لأصبحت تربيتها في بيئة الإنسان خطيرة جداً. فنحن لا نستطيع أن نُرَبِّي بآراً مشاجراً، وحتى قطة غاضبة ومنزعجة، فكيف نُرَبِّي هذه الحيوانات الكبيرة القوية التي يمتلك بعضها قروناً وبعضها ذات اسنان قاطعة وفك قويٍّ، وارجل بعضها قوية وكبيرة تستخدمها للضرب والرفس، فاذا لم تكن مطيعة فكيف نستخدمها للركوب؟ ولولا التسخير الالهي حقاً لم نستفد منها أبداً (ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ) (1). والنكته الجديرة بالذكر أيضاً أنّ ظهرَ الأنعام خُلِقَ بحيث يكون مناسباً ومُعَدّاً لركوب الإنسان. ومما يلفت النظر انه يذكرُ الركوبَ عليها هدفاً اولاً، وذكر نِعَمِ الخالقِ يعتبره الهدف الثاني، وتعد معرفة الذات الإلهية المقدسة وتسبيحه و تقديسه هي الهدف النهائي، فذكر النِّعَمِ يَضَعُ الإنسان دائماً في طريق معرفتها، ومن ثمّ كلُّ مواهب الخلق دافعٌ ومقدمة لمعرفة الله سبحانه. وذكر هذا المعنى في الآية العاشرة والاخيرة بالاضافة إلى منافع أُخرى، وقد تمت الإشارة في هذه الآية إلى خمس فوائد أساسية للانعام، واعتبرها من آيات الله. (1) أنّ الضمير المفرد في "طهوره" و "عليه" و "له" يعود إلى "الانعام" لأنّ "الانعام" -وكما قلنا سابقاً- ذات معنى جمعي، الا انها تلفظ مفردة، وطن بعضهم أنّ هذه الضمائر تعود إلى "ما" في "ما تركبون"، وفي هذه الحالة تشمل "الانعام" و"السفن" علماً أنّ "مقرنين" من مادة "إقران" وتعنى الاقتدار على الشيء، وفسّرَها بعضهم بمعنى القبض والحفظ.